القاتل .. الذى دافع عنه النائب العام!

محاكمة « قصرى » بتهمة القتل العمد

... وفى هذا الجو البشع الذى لا تطمئن إليه العدالة صدر الحكم قاضياً باعدام « لاندرو » فعلت الصيحات الجنونية مهللة فرحة .. فنهض النائب العام من كرسيه فزعاً وصاح فى الجماهير :

— أيها الجبناء .. أي نوع من الناس أنتم أهكذا تتضاحكون في الوقت الذى يسير فيه رجل الى الموت !.

وعقب المتهم فى هدوء وقال :

— لقد أخطأت المحكمة . . انى لم أقتل أحداً بالمرة .

كان الاتهام الذى وجه إلى « هنرى ديزيريه لاندرو » فى عام ١٩٢١ اتهاماً فذاً فى تاريخ المحاكمات الجنائية الحديثة . . فقد نسب إليه أنه قتل — على الأقل — عشر نساء من المائتين والثمانين اللاتى تعرّف وتحبّب وتقرّب إليهن ! .

وقد جرت محاكمة « لاندرو » أمام محكمة ڤرسايل بفرنسا . . وهنا نقف لحظة لنشير إلى تعليق أغلب رواة الحوادث والمحاكمات الجنائية الشهيرة على ذلك : من أنه لو كانت محاكمة هذا الرجل قد تمت أمام « الأولدبيلى » بلندن مثلا لكان هناك شك كبير فى ثبوت الاتهام عليه . . وتمكن من أن يجد طريقه إلى الحرية فى يسر وبغير عناء ، لأن الأدلة التى استجمعت ضده كانت واهية ضعيفة غير محكمة ، بقدر ما كانت إجاباته على ما وُجّه إليه من اتهامات ، قوية نافذة صائبة . . هذا إلى أن المشاهد التى جرت فى أثناء محاكمته كانت فى نظرهم مما يسىء إلى سمعة العدالة فى فرنسا ، ويشوه اسمها إلى حد كبير . . وسواء أكان « لاندرو » بريئاً أم مديناً فى الواقع ، فإنه من المقطوع به لدى هؤلاء الرواة أن رأسه سقطت على المقصلة — كما سقطت رؤوس آلاف من قبله فى أثناء الثورة الفرنسية — لا إرضاء للعدالة فحسب ، بل استجابة لصرخات العامة التى لا تنقطع ! .

* * *

فى يوم الجمعة — الحادى عشر من ابريل عام ١٩١٩ — كانت الآنسة « لاكوست » الشابة تسير بشارع « ريفولى » الشهير بباريس متنزهة ، وما أن مرت إلى جوار أحد محلات بيع الأوانى الصينية ، حيث كان يقف أمام واجهته رجل وسيدة يتفرسان فيها . . حتى استرعى مرأى هذا الرجل انتباهها ، إذ عادت إلى ذاكرتها فى الحال صورته التى لا يمكن أن تنسى بسهولة لفرط ما بها من علامات مميزة . . لاتقف عن حد : العينين السوداويتين النافذتين ، والأنف الدقيقة المدببة . . بل تتعدى ذلك إلى تلك الذقن الحمراء اللون ذات الشعر الكث المنسق ، والشارب المعنى دائماً بتهذيبه . . هذا إلى أن المظهر العام للرجل كان يوحى بالاحترام والمهابة ، ويضعه فى عداد صفوة الممتازين المختارين من بين طبقات الناس .

على أن هذا كله لم يكن الذى استرعى وحده انتباه الآنسة « لاكوست » واهتمامها . . بل أنها وجدت فى هذا الرجل شخصاً سبق أن تعرفت إليه منذ عام مضى أو يزيد تحت اسم « اندريه فريمنيه » إذ قدمته إليها شقيقتها « مدام بويسون » عندئذاك ، وأسرت إليها بأنه راغب فى الزواج منها ، وبأنه من أصحاب المصانع الناجحين بمدينة « ليل » . . وبعد أيام من ذلك التعارف خرجت مدام « بويسون » من منزلها لتستحضر رداء زفافها المرتقب ، ولكنها لم تعد بالتالى إلى هذا المنزل ومنذ ذلك اليوم انقطعت أخبارها عن العالم تماما !.

ولقد كانت الآنسة « لاكوست » تشك دائماً فى أمر المسيو « فرينيه » وتحس فى قرارة نفسها بأنه على علم بما جرى لشقيقتها المختفية . . ولكنها فشلت فى الاهتداء إلى مقره ، حتى إذا ما رأته فى ذلك اليوم متطلعاً مع مصاحبته إلى واجهة المتجر بشارع « ريفولى » استقر عزمها وتصميمها أن تقتفى آثاره إلى أن تكشف بالضبط عن حقيقة أمره . .

وأسرعت الآنسة « لاكوست » بإبلاغ البوليس الذى تبين له أن « أندريه فرينيه » يتخذ اسم « لوسيان جوييه » ، ويعلن عن نفسه بأنه مهندس . . ويقيم فى شقة أنيقة بباريس مع الفتاة الجميلة التى كانت تسير معه فى شارع « ريفولى » والتى تدعى « سيجريه » .

ولقد أوضحت الآنسة « لاكوست » أيضاً إلى البوليس أمراً عجباً عن السيد « فرينيه » أو « جوييه » . . إذ قالت بأنه كان قد اتصل بها لشهور قليلة ماضية داعياً إياها إلى زيارته وتناول العشاء معه ومع شقيقتها — التى كانت قد اختفت منذ سنة — فى شقتهما بباريس . . وكادت تقبل الدعوة لرغبتها وتشوقها إلى رؤية شقيقتها . . ومعرفة مقرها ولكنها رفضت تلبية هذه الدعوة إلا بعد أن تتصل بها شقيقتها المختفية شخصياً . . إلا أن هذا الاتصال لم يتم بالمرة مما جعلها تعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الشقيقة قد لاقت حتفها بطريقة مايعرفها جيداً هذا السيد البديع الصورة .

وبعد أن قام البوليس ببعض التحريات التى استغرقت ثلاثة أيام من تاريخ اتصال الآنسة « لاكوست » به . . ألقى القبض على « لوسيان جوييه » . . وبذلك بدأت سلسلة طويلة من الاجراءات والتحقيقات التى لا نظير لها فى عالم الجريمة والإجرام استغرقت سنتين ونصف مثل بعدها هذا الرجل أمام القضاء ليقول كلمته فيه . .

وكما كان الرجل يسمى نفسه « لوسيان جوييه » عند ضبطه . . وكما كان يتسمى باسم « أندريه فرينيه » عندما تعرف إلى الآنسة « لاكوست » فقد كان اسمه مقيداً فى سجلات البوليس على أنه « هنرى ديزيريه لاندرو »

أما السبب فى معرفة البوليس له وتخصيص سجل باسمه فلأنه كان قد اتهم فى عديد من حوادث الاحتيال المختلفة الصور . . ولو أن لاندرو أنكر هذا الاتهام منذ اللحظة الأولى . . صارخاً فى دهشة :

ـ عفواً . . إن اسمى هو لوسيان جوييه . . المهندس !

ولكن . . كيف يمكن أن يطلق البوليس سراحه بعد أن ضبط مفكرة تحوى أسماء لعشر سيدات قرين كل منهن تاريخ معين . . تبين بعد البحث أنه التاريخ الذى اختفت فيه الواحدة منهن من الوجود ؟!

ولقد ازداد الطين بلة عندما اكتشف البوليس أيضاً أن « لاندرو » هذا كان يملك فى وقت ما ـ انتحل فيه اسم « ديبون » ـ منزلا بقرية « جامبيه » التى تبعد أربعين ميلا عن باريس أطلق عليه اسم ،

« فيلا أرميتاج » . . وأنه اعتاد أن يقابل هناك عديد من السيدات كن يفدن إليه على أثر نشره بعض إعلانات الرغبة فى الزواج . . هذا إلى أن كثير من النسوة — أحصى البوليس ما لا يقل عن سبعة وتسعين منهن — أبلغن عنه البوليس متهمن إياه بالاستيلاء على جانب من ثروتهن أو أثاثهن المنزلى .

ومن عجب أن « لاندرو » أجاب البوليس بقوله :

— إنى غشاش مخادع . . هذا حقيق . . ولكنى لست بقاتل . .

وذلك على أثر اتهامه منه بقتل السيدات اللاتى دخلن فى نطاق مغامراته أو احتيالاته ولم يشاهدن أحياء بعد ذلك ! فلقد أنكر منذ اللحظة الأولى معرفة أى شىء عن مصير هؤلاء المختفيات . . حتى أولئك اللاتى جاء ذكرهن فى مفكرته الخاصة . . مصرحاً بأنه إنما كتب أسماءهن لأمور تتعلق بعمله كمتعامل فى مسائل الأثاث المنزلى المستعمل ، وأن التواريخ التى وضعت أمام هذه الأسماء إنما هى تواريخ انتهاء التعامل معهن . . فما ذنبه إذا كن قد اختفين بعد ذلك أو لم يعثر لهن على أثر ؟ !

وهكذا جاءت الصعوبة وتولدت عقدة الإثبات . . فكيف السبيل أزاء هذه القرائن إلى إثبات أنه اغتال هؤلاء المختفيات . . وإلى هدم تصريحاته التى أدلاها عن علاقته بهن ؟ .

ولقد كانت السيدة الأولى التى وقعت فى حبائل لاندرو — كما قال الاتهام فى أثناء المحاكمة — هى « مدام كوشيه » الأرملة الفاتنة والتى كان لهـا ابن يبلغ الثامنة عشر من عمره عندما اتصلت به — وقد اختفيا معاً بعد هذا الاتصال بقليل .. ولكن لاندرو قرر أنه لا يعرف من جهته سبباً لاختفائهما .. وأنها حقيقة اتصلت به على أثر نشره إعلاناً للزواج .. كما وأنها زارته مراراً وذلك لإلحاق ابنها بأحد الأعمال .. وهكذا نشأت بينهما عاطفة الحب العميقة إلى أن تركت شقتها الخاصة بباريس وقطنت ڤيلا فى « فرنوييه » فترة ما ..

ولم يجد الاتهام ما يؤيد رأيه من أن لاندرو قتل هذه السيدة وابنها بعد أن باعت الأولى أثاثهـا وسحبت ما وفرته من مال سلمته كله إلى المتهم أملا فى زواجه منها .. إلا باستقدام شقيقتها « مدام فريدمان » لتشهد أمام المحكمة بأنها حلت فى أثناء رقادها بأن شقيقتها التعيسة قد قتلت ! !

فلما سألها القاضى :

— وما الذى يدعوكِ إلى الظن بأنها قتلت ؟

أجابت :

— لأنها لو كانت حية ترزق لما تركت لاندرو يذهب هكذا إلى المقصلة وهى تحبه حباً عنيفاً نادراً !.

إنها إجابة رائعة حقاً .. ولكنها ليست بدليل على كل حال على اتهامه بالقتل !. فإذا غضضنا النظر مؤقتاً عن وجود بعض ملابس هذه الأرملة وولدها فى حوزة لاندرو . . وإلى ما ثبت من تصرفه فى ممتلكاتها . . لما وجدنا أى دليل آخر بالمرة على أنهما لقيا حتفهما على يديه أو أنه يعرف كيف فارقا العالم ! .

أما الذى ثبت حقيقة فإنه فى الوقت الذى قيل بأن مدام كوشيه وولدها قتلا فيه . . اتصل المتهم بأرملة تدعى « مدام لابوردلين » . . وذلك على أثر نشرها إعلاناً فى الصحف برغبتها فى العمل كممرضة . . ولم يكن اتصاله بها لهذا السبب بل لظنه أنها قد تكون فى غير حاجة إلى ما لديها من أثاث منزلى بعد أن تحصل على العمل الذى أعلنت عنه . . وبالفعل تبين أنه تولى أمر بيع أثاثها فى شقتها بباريس وأنها رحلت معه على الأثر فى إحدى سيارات الأجرة . . وإن كانت لم تشاهد حية بعد ذلك !

أما كيف اختفت « مدام لابوردلين » فهذا ما لم يعرفه أحد بالضبط . . وإن كان لاندرو قد اتهم طبعاً بقتلها . . وما ذلك إلا لأن البوليس عثر فى حوزته على بطاقة إثبات شخصيتها ! .

وقد كان دفاع لاندرو دائماً فى أثناء محاكمته ينحصر فى أنه كان يتولى بيع أثاث هؤلاء النسوة إذ كان يتعامل فى تجارة الأثاث المنزلى

المستعمل . . وأيد دفاعه هـذا بمـا ورد فى الأوراق التى وجدت فى حوزته من الإشارة إلى الأرقام التى نتجت له عن كل عملية من العمليات . . فقد ذكر قرين اسم « مدام لابوردلين » مثلا أنه قد حصل من وراء بيع أثاث شقتها على سبعة وخمسين جنيهاً . . وهـكـذا فإنه كان يتولى عملية البيـع . . ثم يسلم للعميلة ما تستحقه بعد ما يحصل على عمولته . . ثم يودعها دون أن يراها بعد ذلك لانتهاء معاملته معها ! !

ولـكن الاتهام أصر بالرغم من ذلك على القول بأنه ماكاد « لاندرو » يتخلص من « مدام لابوردلين » حتى أوقع فى حبائله أرملة ثالثة هى « مدام جويلان » التى كانت ذات ممتلـكات محدودة وأثاث منزلى بسيط وما لبثت هذه أن أخبرت صديقاتها فى فخار بعزمها على الزواج مرة أخرى من سيد محترم يعمل قنصلا عاماً فى أوستراليا ! — ولم يـكن هذا القنصل العام سوى لاندرو ! — حتى باعت الأرملة المرحة أثاث شقتها الباريسية . . ورحلت إلى ڤيلا لاندرو فى « فرنوييه » وبعد ذلك لم يشاهدها أحد على الإطلاق !

ولم تـكن « مدام جويلان » ذات حسن أو بهاء . . بل كانت بدينة دميمة . . ولهذا فقد قيل لذلك أنها كانت فريسة سهلة للاندرو . . إلا أن قبحها هذا كان مثار تعليق من القاضى . . والمتهم معاً . . إذ قال الأخير عنها :

ـــ إنى لا أعرف من تكون .. بل أن القاضى نفسه قد تفضل فوصفها بالدمامة والادعاء.. إذ كانت تتحلى بأروع الملابس فى الوقت الذى كانت تضع فيه على رأسها شعراً مستعاراً . . باحثة بذلك عن زوج .. ولهذا فليس من المستبعد أنها ابتكرت كل هذه الأقاصيص التى نسجتها حول زواجها من « القنصل العام فى أستراليا » ارضاء لنزعتها وإشباعاً لكبريائها أمام صديقاتها ! !

ولقد تقدمت سيدة من صديقات « مدام جويلان » لتأدية شهادة مثيرة يمكن أن تلقى بعض الضوء على السبب الذى حدا بلاندرو إلى الإجهاز على صديقتها إذا كان ما نسب إليه فى هذا الشأن حقيق . . فقالت :إن الأرملة التعسة أخبرتها بأنها كانت ذات يوم تزور « لاندرو » فى ڤيلته بفرنوييه . . وانتهزت فرصة تغيبه فى الحديقة بضع دقائق وعمدت ـــ بدافع غريزة حب الاستطلاع لدى المرأة ـــ إلى التطلع من ثقب مفتاح أحد الأبواب التى كان صاحب المنزل يحرص دائماً على إحكام رتاجه ،فدهشت إذ رأت ملابس نسائية عديدة متناثرة إلى أرض هذه الحجرة المغلقة . . ولما أخبرت لاندرو بما رأت وسألته تفسيراً لوجود هذه الحاجيات النسائية بالحجرة ، فارقه حلمه وثباته وانفجر غاضباً مهتاجاً . . وبعد قليل تمكن من استعادة جنانه وأخبرها بأن هذه الحجرة تحمل ذكرى غالية لديه هى وفاة والدته بها . . ولذلك فقد

حرص على إغلاقها بالحالة التى تركتها الوالدة الراحلة عليها . . وفاء منه وذكرى .

وعند ما تكاثر عدد الشهود الذين تقدموا إلى المحكمة مقررين أن « لاندرو » كان على صلة بمدام جويلان وأنه وعدها مراراً بالزواج صاح فيهم قائلا :

ـــ إنى أحتج على كل هذه الأقوال . . فكيف يمكن لمخلوق أن يتصور أنى أرغب فى الزواج من هذه الإمرأة ذات المظهر العادى . . والشعر المستعار . . والثقافة الناقصة . . والتى تشبه فى تصرفاتها وعاداتها « الغسالات » !!

على أنه ثبت فى الوقت نفسه أن هذه « الغسالة » قد وقعت قبل اختفائها ـــ أو قتلها ـــ وثيقة تخول للاندرو الحق فى الاستيلاء على ممتلكاتها والتصرف فيها كيفما يشاء . . وأنه باع بالفعل بعد هذا الاختفاء ممتلكاتها وأثاثها وسحب ما كانت قد ادخرته فى أحد المصارف ! !

ولقد اتضح أن « لاندرو » قد ترك منزله فى فرنوبيه واشترى كوخاً صغيراً فى « جامبيه » ، وكانت أول قطع الأثاث التى عنى باستحضارها إلى المأوى الجديد « فرن للطهى » لعب أمره دوراً هاماً فى أثناء محاكمة صاحبته الطويلة . .

وإلى هذا الكوخ الصغير الذى أطلق عليه اسم « أرمتاج » استدرج

« هنري ديزيره لاندرو »

فتاة صغيرة تدعى « أندريه بابلاى » بعد ما قابلها فى أحد قطارات المترو بباريس . . ووجدها فى حالة من الحزن والأسى على أثر فقدها لعملها كممرضة . . ومن عجب أنه أواها أول ليلة لتعرفه لها فى شقته الصغيرة بباريس . . وفى صباح اليوم التالى قصدت هذه الفتاة إلى حيث والديها وأخبرتهما بعزمها على الزواج من سيد يدعى « جوبيه » وكان هذا آخر عهد الوالدين بابنتهما الغضة الشباب التى اتهم « لاندرو » بقتلها ضمن من اتهم بقتلهن . . كما أنهما لم يشاهدا هذا الذى قيل أنه قتل ابنتهما إلا فى أثناء وقوفه أمام القضاء .

ولقد كانت المفكرة الخاصة التى ضبطت فى حوزة « لاندرو » من الأهمية بمكان عظيم لأنها كشفت عن أسماء النساء اللاتى تعاملن معه وخدعهن . . وأولئك الذين اختفوا عقب اتصالهن به أيضاً . . كما وأنه كان يدوّن فى هذه المفكرة بيانات مالية دقيقة تشمل فيما تشمل دخله وخرجه يوماً بعد يوم .

سأله القاضى ذات مرة فى أثناء محاكمته :

ــ أثبت فى مفكرتك أنك اشتريت فى يوم ١٧ مارس تذكرتين للسفر إحداهما للذهاب والإياب من باريس إلى « جامبيه » ــ حيث الفيلا ــ وبالعكس . . والأخرى للذهاب فقط . . أو ليس لى الحق أن أسألك عما إذا كان الأمر مجرد صدفة أم لا ، إذا لاحظنا أنك فى

كل مرة تذهب فيها إلى هذه الضاحية تشترى تذكرة مزدوجة وأخرى للذهاب فقط ؟ أفلا نكون على حق إذن إذا استنتجنا من هذا التصرف أن ضحيتك المسكينة التعيسة التى ترافقك فى هذه الرحلة تكون فى الواقع قد كتبت عليها الفناء فى نظرك فلا تستحق عناء شراء تذكرة عودة لها إلى باريس .. معك ! ! .

على أن « لاندرو » لم يذعر لمثل هذا السؤال بل أجاب فى هدوء :

ــ كل ما ألاحظه على هذا السؤال أن الاتهام يعمد دائماً إلى المغالطة فليست هذه الملاحظة بالتى تثبت أنى ارتكبت جريمة قتل ! ومهما يكن من أمر فلى تعليل بسيط أزاء الآنسة « بابلاى » بالذات .. فقد اشتريت تذكرة ذهاب لها فقط إذ كانت تزمع عند سفرها على أن تقيم فى « جابيه » حيث الطبيعة الهادئة والهواء المنعش كيما تسترد صحتها .. ولقد عادت بعد ذلك من هذه الضاحية الريفية بعد أن وجدت لها عملا فى باريس .

ولقد وجدت بعض أوراق شخصية لكثير من النسوة المختفيات بين ما عثر عليه فى حوزة « لاندرو » ولهذا كان الاتهام على حق ــ فيما يبدو ــ عند ما سأله :

ــ أوليس هذا عجباً ؟ ! ما الحكمة أن تحتفظ بأوراق شخصية لكل هؤلاء النسوة اللاتى اختفين من على وجه البسيطة ؟ ! .

ولم يلبث « لاندرو » أن أجاب فى برود :

ـ إذا كانت النساء تؤثرنى بالثقة فما ذنبى أنا . . ولماذا لا أكون محلا لها ؟ ! .

على أن هذه الإجابات السديدة من جانب « لاندرو » وهذا الذكاء المتقد لم يمنعه من أن يسقط بين يدى البوليس على أثر مشاهدة الآنسة « لاكوست » له فى ذلك اليوم المشئوم بشارع ريفولى ، وهكذا شق طريقه ـ ببطء ـ إلى المقصلة ! ! .

ولقد قبض على « لاندرو » فى ابريل من عام ١٩١٩ . . ولكنه لم يمثل أمام القضاء إلا فى نوفمبر من عام ١٩٢١ . . وفى خلال هذه المدة دأب البوليس على تفتيش فيلته فى « جامبيه » وعلى جمع البيانات من هنا وهناك حول النسوة المفقودات . . جارياً وراء الإشاعات طوراً . . منقباً بين الأوراق طوراً آخر . . وفى كل يوم من أيام هذه الفترة الطويلة التى تبلغ زهاء عام ونصف عام كان « لاندرو » يمثل أمام المحققين حيث يسأل ويستجوب ويناقش ويواجه بالشهود العديدين . . بل ويهدد ويهان . . كل ذلك أملا فى انتزاع اعتراف منه . ولكنه صمد لهذا كله وأنكر كل مانسب إليه . . كما وأن كل الجهود التى بذلت لم تسفر عن العثور على أية جثة من جثث أولئك اللاتى قيل بأنه قتلهن . . بل لم يعثر على أى عضو آدمى يمكن الإهتداء بواسطته إلى واحدة من أولئك المفقودات العديدات . . وكان كل

ما ووجه به كدليل على القتل بضع أوراق وخطابات .. وملابس نسائية متناثرة .. وحفنة من العظام المهشمة !! .

ومع ذلك كله فلم يعدم الإتهام أن واجهه بستة آلاف مستند .. ومائة وأربعين شاهداً .. للتدليل على أن كثيراً ممن اتصلن به قد اختفين لا قتلن !! .

ولقد كان المفهوم من جانب الإتهام أنه ينسب إلى « لاندرو » حرق جثث ضحاياه .. ولذلك فقد استقدم عديد من الشهود للتدليل على أنهم شاهدوا « دخاناً مريباً » ينبعث من مدخنة فيلته ! وفى ذلك كان « لاندرو » يتساءل :

ـ ومتى وكيف يصبح الدخان مريباً ؟ ! .

ولكنه لم يحظ بجواب شاف .. بل أضاف ساخراً :

ـ إنى أعتقد تماما أن هؤلاء الشهود لم يشكوا فى أمرى إلا بعد أن قرأوا فى الصحف نبأ القبض علىّ .. وبعد ما سمعوا نظرية الإتهام من أنى كنت أحرق جثث ضحاياى ! .

ويجب بهذه المناسبة ألا ننسى بأن قضية « لاندرو » شغلت الصحف الفرنسية ـ بل وغير الفرنسية ـ مدة عامين على الأقل ، كان فى خلالها كثير من الكتاب ينسج الروايات حول تصرفاته واغتيالاته لعشيقاته ثم يطالب فى النهاية برأسه ودمه .. وهكذا فإنه عند ما مثل هذا

المتهم التعس أمام القضاء كانت الجماهير تنتظر فى لهفة نبأ الحكم بإعدامه متعطشة إلى رؤية دمه يسيل على المقصلة سواء ثبت الإتهام عليه أم لم يثبت . . وسواء وجد مذنباً أو غير مذنب فى نظر القضاة والمحلفين .

ولقد حاول الأستاذ « مورو جيافرى » أشهر محامى عصره وبلده فرنسا ، محاولة مثيرة طويلة أن ينقذ رأس موكله « لاندرو » وكان موفقاً عندما بدأ مرافعته عن المتهم بالإشارة إلى القانون المدنى الفرنسى وحكمه فيما يختص بالأشياء الخاصة بالمفقودين . . فطبقاً لهذا القانون لا يمكن أن تسلم هذه الأشياء لأقارب المفقود إلا بعد مضى أربعة سنوات على الأقل وبشرط أن يتعهد هؤلاء بردّها إلى أصحابها متى عثر عليهم . . ولا يمكن أن تصبح هذه الأشياء ملكا لأقارب المفقود وعائلته ملكية نهائية إلا بعد مضى ثلاثين سنة على الأقل لايعثر فى خلالها على أثر له وأردف بعد ذلك يقول :

ــ ترون من ذلك كيف أن القانون يحتاط حيطة تامة بالنسبة للأشخاص المفقودين . . أو الذين يفترض أنهم مختفين . . فلا يعتبر القانون أن الشخص المفقود أو المختفى ميتاً أو قتيلا . . فتصوروا معى مثلا أن « لاندرو » هذا قد مات . . فتطبيقاً للقانون المدنى الفرنسى لا يمكن لأحد من أقارب النسوة التى عثر لديه على منقولات وأشياء خاصة بهن أن يتسلمن هذه المنقولات والأشياء إلا بعد مضى أربعة سنوات . . ولا تنتقل الملكية النهائية إلا بعد ثلاثين سنة ، لأن القانون لا يعتبر أن

اختفاءهن يعنى موتهن . . فلماذا تريدون أنتم أن تعتبروا هؤلاء المفقودين موتى أو قتلى . . بينما لا يمكن اعتبار منقولاتهن مباحة للأهل إلا بأوضاع معينة ؟ .

فلماذا كل هذا . . وعبء إثبات الموت أو القتل واقع على النائب العام . . الرجل اللبق الذى سألكم مراراً رأس هذا المتهم أن تظهر على المقصلة .

فأى تناقض فى كل ذلك ؟ ! أى تناقض بين القانون المدنى ومنطق النائب العام ؟ !

إن القانون لا يعتبر أن صاحب الحاجة متوف أو مفقود ، وهذه الحاجة لا تساوى إلا فرنكات معدومة . . بينما يعتبر النائب العام أصحاب هذه الحاجيات مفقودين أو قتلى ويطالب بدم هذا الرجل وبرأسه ! .

لقد كان فاتحة الدفاع منطقية ومقبولة ومعقولة ، ولكن كل ذلك كان فى الواقع بلا جدوى . . بل لم يثمر مثقال ذرة فى انتزاع الفكرة التى تسلطت على كل الأدمغة من أن الماثل أمام المحكمة قد قتل عشيقاته وحرق جثثهن .

وعندما قبض على « لاندرو » كانت تعيش معه الآنسة « سجريه » ولقد كانت شهادتها أمام القضاء لذلك محل نظر واهتمام . . وبالرغم من أنها ظلت سنتين تستمع إلى الاتهامات العديدة التى وجهت إلى

عشيقها . . فإنها أدلت بأقوال ، وهى فى كرسى الشهادة ، تدل على أن ما سمعت لم يرتق أية درجة عن مرتبة الكلام الذى لا وزن له ولاقيمة فى نظرها .

قالت هذه الشاهدة الجريئة :

ـــ لقد قابلت « لاندرو » أول ما قابلته مصادفة . . كان ذلك فى يوم من أيام شهر مايو عام ١٩١٧ عندما ركبت الترام فى طريق لشراء بعض حاجياتى . . فلقد لفت نظرى سيد ، مهذب ، محترم ، قدم لى عن طيب خاطر مقعده . . وكان هذا السيد هو المتهم الماثل اليوم أمامكم . . ولذلك فإنى لم أتردد فى لقائه فى اليوم التالى عند « قوس النصر » إذ أن أدبه الجم وطريقته اللطيفة أسرتنى .

وبعد اللقاء الأول توثقت عرى الألفة بيننا . . وبعد أن تكرر لقاؤنا . . أصبح من عادتنا أن نلتقى كل يوم تقريباً . . إلى أن أخبرنى ذات يوم باسمه « لوسيان جوييه » ومهنته « مهندس » والحق أنى بدأت أحبه ولم أتردد فى تقديمه إلى أهلى . . ولقد حضر بالفعل لزيارة عائلتى فى اليوم الأول من عام ١٩١٨ فترك أثراً طيباً فى النفوس ، وقالت ولدتى لى عنه أنه لطيف المعشر . . وهكذا أصبح من حقه التردد على منزلنا .

لقد كان المتهم دائماً رقيقاً وطيباً معى ، ولذلك فإنى أجله وأقدره

دائماً . . ولقد وهبت نفسى له لأنى أحببته ولأنى كنت دائماً أشعر بالسعادة معه . . إنى أعنى ما أقول تماماً . . ولا أندم عليه مطلقاً . . فلقد أحببت هذا الرجل ولا زلت أحبه .

ولقد كانت كل الأقوال التى قالتها الآنسة « سجريه » جريئة ودالة على شجاعة نادرة . . إذ كان من الصعب عند المحاكمة أن يجابه شاهد الجمهور المتعطش لدم المتهم . . ولكنها فعلت ذلك وأكثر منه إذ قالت بأنها زارت « لاندرو » عديداً من المرات فى ڤيلته بضاحية « جامبيه » ولما سئلت :

ــ وهل شاهدت عظاماً آدمية فى فرن مطبخ المتهم عند ما كنت لديه فى يوم ٤ ابريل سنة ١٩١٩ ؟

أجابت فى حزم :

ــ أبداً . . إن هذا السؤال يدهشنى . . لقد اعتدت أن أنظف الفرن وأن أعيد ملئه بالوقود . . وأنى واثقة من أنه لم تكن به عظام بالمرة . .

ومع ذلك فإن البوليس أكد بأنه وجد فى هذا الفرن عظاماً آدمية بعد ذلك التاريخ بأيام ! !

ولقد كانت الفصول الختامية لمحاكمة « لاندرو » مما يسىء إلى سمعة القضاء فى بلد متمدين كفرنسا . . ففى اليوم المحدد لسماع الحكم فيه انعقدت محكمة ڤرسايل فى مكانها التقليدى ، وما أن فتحت أبوابها حتى

تدفق الجمهور لشهود الجلسة الأخيرة المرتقبة . . وكم كان مدهشاً أن تكون نسبة النساء بين الحاضرين تزيد عن خمسة وتسعين فى المائة ! هذا إلى أن الجماهير التى لم تتمكن من دخول قاعة المحاكمة تدافعت بالمناكب فى ردهات المحكمة وفنائها . . وما أن صعد « لاندرو » السلم المحاط بالزجاج والموصل من فناء السجن إلى ردهة المحكمة . . وما أن فتح الباب المؤدى من السلم إلى هذه الردهة ، وما أن لمحته الجماهير المتدافعة . . حتى هبت صيحات الغضب والهياج والاستنكار فى مشهد لم يرو التاريخ مثله إلا فيما رواه عن إلقاء المظلومين والضحايا طعاماً للوحوش الكاسرة فى « الكوليزيوم » الرومانى . .

وفى انتظار خروج القضاة من حجرتهم أخذت النسوة فى قاعة المحاكمة تحتسى الشمبانيا وتلتهم الدجاج والمأكولات الباردة بين الضحكات الرنانة المستهترة والصيحات العالية المتكررة . . حتى ليصعب التصديق أن هذه القاعة إنما أعدت للمحاكمات !

وفى هذا الجو البشع الذى لا تطمئن إليه العدالة . . كان رجال العدالة يعدون حكمهم وما أن نطقوا به قاضياً بإعدام المتهم حتى علت الصيحات الجنونية والأصوات الوحشية مهللة فرحة متفانية فى الشماتة والإنتقام .

ومن عجب أن كل هذه المناظر والمشاهد المؤذية أثارت رجل الإتهام

الأول الذى كان يطالب دائماً برأس المتهم ودمه . . فنهض هذا الرجل ـــ النائب العام ـــ من كرسيه فزعاً لهول ما رأى وسمع . . وصاح بأعلى صوته :

ـــ أيها الجبناء . . أى نوع من الناس أنتم ؟ ! أهكذا تتضاحكون وتبتهجون فى الوقت الذى يسير فيه رجل إلى الموت ؟ !

ومن أعجب أن « لاندرو » تمالك أعصابه وضبط زمام نفسه حتى النهاية . . فلم تثره هذه المشاهد بالمرة . . بل عقب على الحكم عليه بالإعدام قائلا فى هدوء :

ـــ لقد أخطأت المحكمة . . إنى لم أقتل أحداً بالمرة .

وفى الليلة السابقة لإعدامه كتب « لاندرو » إلى النائب العام « المسيو جودفروى » الذى قاد حملة الإتهام ضده رسالة تعتبر حدثاً فذاً فى تاريخ المحاكمات . . وقد استهلها بقوله :

ـــ لقد أخذت تتلو أوراق الإتهام . . وألبت ضدى المواد التى يحتويها قانون العقوبات . . وعوامل الإثارة والتهديد والتخويف . . ثم حدجتنى بنظراتك لعلك تجد من جانبى بادرة حركة . . أو أى إشارة للين أو لميل . . ولكنك كلما كنت تمعن فى التطلع إلىّ كنت تشاهدنى أتطلع إليك فى الوقت نفسه ! .

لقد أخذت بروعة ردودى الصائبة التى كانت تولد الشك لديك . .

هذا الشك الذى كان مفزعاً لك يا من كنت تقود الإتهام . . ومع ذلك فقد حاولت جاهداً أن تحصل منى على كلمة واحدة . . كلمة واحدة فقط دون جدوى .

لقد بحثت عبثاً بين ثنايا أدلتك واتهاماتك . . التى تعرف قيمتها وتقدرها حق قدرها . . كيما تجد أى شىء يمكن أن يقوى عضدك ويرفع الشك عن كاهلك ، ولكن بلا فائدة . . ولا شك أنك بحاسة العدالة المستأصلة فى نفسك كنت لا تلقى بالا أو اعتماداً على أقوال أولئك النسوة العجائز اللائى قدمن إلى ساحة المحكمة ليرددن أقوالا لاتعبر إلا عن شعورهم الخاص . .

ثم أشار « لاندرو » فى كتابه إلى الفرن الذى أكد النائب العام أن جثث الضحايا كانت تحرق فيه . . فقال :

ـــ إن هذا الفرن يا سيدى ما هو إلا أداة صغيرة تصلح للعب الأطفال وربما لهوت يوما ما يا سيدى « المسيو جودفروى » أنت وشقيقتك فى طفولتكما بمثل هذا الفرن . . كم كان هذا الفرن صغيراً بالنسبة للجرائم العديدة التى قيل بأنى ارتكبتها بمعونته ؟ !

ولم ينس « لاندرو » أن يتهكم من النائب العام الذى اتهم الجماهير بالجبن علناً عند ما كانوا يصيحون عقب النطق بالحكم . . فكتب :

ـــ لِمَ هذه الثورة . . وهذا التأنيب . . فإذا كنت مذنباً فلماذا

تثور على الجمهور وتؤنبه ؟ ! ألست وحشاً كما كنت تقول . . فلماذا إذن تقف الآن إلى جانبي لترد عادية الشعب الثائر علىّ ؟ . . لقد انتهى كل شيء ونطق القضاء بالحكم . . ولقد قابلت أنا هذا الحكم بهدوء . . ولكنك انقبضت . . وما ذلك إلا لأن ضميرك قد تحرك ؛ وأن ضمير القاضى المعذب لعدم ثقته فى حكمه ليعدل عذاب المجرم المذنب . .

وداعاً ياسيدى النائب العام . . فلسوف ينتهى تاريخنا معاً فى الغد . إنى أموت بنفس بريئة وضمير ساكن . . وإنى إذ أطلب إليك أن تتقبل تحياتى المخلصة لأرجو أن تكون مهيئاً عند ما تتقبل الموت ومستعداً له مثل ما تهيأت له واستعددت . .

وهكذا كانت كلمات « لاندرو » الختامية التى قذف بها فى وجه النائب العام . .

وسيان كان « لاندرو » بريئاً أم مذنباً فإنه مما لاشك فيه قد أثار الرأى العام العالمى . . لا بالجرائم التى نسبت إليه فحسب . . بل بهذه القوة الفذة المنقطعة النظير فى عالم المحاكمات والقضايا . . قوة العارضة والحجة الناهضة التى كاد أن يتغلب بها على قوات الاتهام التى حشدت سنتين طويلتين أو يزيد ضده . . فلا ريب أنه كان فى كل دقيقة من الدقائق التى لا عدد لها والتى مثل فيها أمام الاتهام والقضاء يشعر برهبة موقفه وحروج مركزه . . ويعتقد أن كلمة واحدة تفلت منه

قد يكون فيها القضاء عليه قضاءاً مبرما . . ومع ذلك فإنه فى ميدان الكفاح الطويل المرير الشاق هذا قد كسب الموقعة . .

لقد فقد القضاء وممثلو الاتهام مراراً أعصابهم . . ولكن « لاندرو » ضبط باستمرار أعصابه وجنانه . . ولم تبد عليه أية بادرة من الخوف أو الفرح أو التردد . . بل إن صوته احتفظ دائماً بنبرته السليمة وجسمه بحركاته المتزنة .

لقد أفزع قضاته بحججه الدامغة وبأسئلته الرصينة . . وعلى الأخص عند ماكان يقول صائحا :

ـــ قدموا لى الأدلة على أنى قتلت هؤلاء النسوة اللاتى تتهمونى بقتلهن . . إن عليكم أنتم إقامة الدليل على ما تدعون .

ومما يذكر أن قضية « لاندرو » ظلت مادة خصبة وفيرة للصحف والمؤلفين والرواة منذ قبض على هذا الرجل إلى يومنا هذا . . وقد انبرت كثير من السيدات بالذات إلى الدفاع عنه بعد موته . . وكتبت بعضهن فى الصحف ـــ بعد سقوط رأسه على المقصلة ـــ ذاكرات بأنهن كن على صلة به وأنه كان مثال الرجل المهذب والمحب الصادق الأمين !

والحق أن شخصية « لاندرو » الوديعة الهادئة وسمته العالية وتصرفاته الثابتة السديدة ماكانت توحى أبداً بأنه قاتل سفاح . . بل إن القضاة أنفسهم الذين مثل أمامهم كثيراً ما حدجوه بنظراتهم علهم يجدوا وراء

مظهره الرائع شيئاً خفياً .. ولكن عبثاً ما كانوا يفعلون ! ! . .

حدث مرة أن قال له أحد القضاة معلقاً على ما هو معروف من تأثير عينيه النافذتين :

ـ « لاندرو » . . من المستحسن أن تضع على عينيك رباطاً مثل الرباط الذى تضعه « آلهة الحسن » على عينيها .

فكانت إجابته الحازمة على الفور :

ـ لا شك أن سيدى القاضى يقصد « آلهة العدالة » .

ولربما كان القاضى والمتهم معاً على حق ! . .